مظاهر الحنين في شعر الشاعر القروي (رشيدسليم الخوري)
الحنين إلى الوطن – أنموذجا–

أ.تجيني أم الخير
كلية الآداب واللغات والفنون
جامعة سيدي بلعباس

يعد الحنين إلى الأوطان الجانب الانفعالي الإيجابي الذي يعبر عن معنى ارتباط الفرد بوطنه وحبه لطبيعته، و هذا اللون قديم قدم الشعر العربي، بيد أنه لم يغدُ غرضا شعريا مستقلا بذاته، فتواجده كان من خلال أبيات متناثرة لا أكثر، إلاّ أن الحنين إلى الوطن اختلفت معانيه خصوصا في الشعر الحديث وتبعاً لهذا الاختلاف في المعنى حظِي الحنين إلى الأوطان باهتمام وافر من طرف الشعراء ليصبح بهذا غرضا شعريا مميزا ينْظُم فيه كل شاعر مغترب.

بين شعراء المهجر و الحنين إلى الأوطان ارتباط شديد، فمعاني هذا الغرض اتسعت وبرزت عند هؤلاء، بما فيهم شعراء المهجر الجنوبي، ونخص بالذكر منهم "رشيد سليم الخوري".

هذا الشاعر الذي عُنِيَ كغيره من شعراء المهجر بتصوير ورسم لوحة مؤثرة بملامحها السوداء و فيضان عيونها تعكس مدى لوعة فراق الوطن الأم، فمغادرة هذا الأخير تثير الشجن و فراق أبنائه تتشبث معه الذكريات، فتشعل شوق النفس للقاء الأهل و الأحباب وضم التربة و استنشاق نسيم ريحان الأرض الطيبة المباركة. وبذلك تميزت نفسية المهاجر برومانسية يصاحبها طموح عظيم لتحقيق آمال

واسعة الحدود، هذا ما دفعها لارتياد المجهول سعياً وراء تحقيق المنشود بالرحيل عن المنبت الدافئ، و لكن هذا الرحيل أبدا لم يكن هيناًعليها.

فقد حانت لحظة الفراق والوداع ، "ويا للوداع من موقف تذوب له نفس النازح لوعة"[i]، هذا ما صوره الشاعر "القروي" حينما كانت تبتعد السفينة عن الشاطئ، فيقول في قصيدته "عند الرحيل"[ii]:

نَصَحْتُكِ يَا نَفْسُ لاَ تَطْمَعِي وَقُلْتُ حَذَارِ فَلَمْ تَسْمَعِي

فَإِنْ كُنْتِ تَسْتَسْهِلِينَ الوَدَاعَ كَمَا تَدَّعِينَ إذاً وَدِّعِي

رَزَمْتُ الثِيَابَ فَلَمْ تُحْجِمِيرِ وَفِيمَ اِرْتِعَاشِكِ فِي أضْلُعِي

---------- – ----------

---------- ----------

كَفَاكِ اِضْطِرَاباَ كَصَدْرِ المُحِيطِ قِفِي حَيْثُ أَنْتِ وَ لاَ تَجْزَعِي.

والملاحظ هنا أن الشاعر قد استعمل كل من أسلوب النهي، والنفي والأمر، فنجد صيغة النهي في قوله: "لا تطمعي" فهو يخاطب نفسه ويذكرها بأنه لطالما نهاها ولكنها لم تستجب، فيتم قوله بصيغة النفي "لم تسمعي" فهو بهذا ينفي وجود الإصغاء، و نجد أيضا صيغةً للنهي في قوله "لا تجزعي"، وصيغة الأمر في قوله "ودعي" و في قوله أيضا "قفي"، و نستشف الاستفهام في البيت الثالث، خصوصا وأن صيغة الاستفهام هي المعمول عليها في شعر الحنين، و هي الأساس في البناء، أي أن الشاعر المغترب يعاني مصيرا مجهولا، و تبرز صيغة الاستفهام بشكل واضح، و نجد تشبيها في قوله " كصدر المحيط".

و لعل أول ما ينكد على المغترب غربته افتقاره للغة الأجنبية، فهذا العامل يزيد الشعور بالضياع و الوحشة، هذا ما عبر عنه "القروي" في قصيدته "شكوى الغريب"[iii]:

نَاءَ عَنِ الأَوْطَانِ يَفْصِلُنِي عَمَنْ أُحِبُّ البَرَّ والبَحْرُ
فِي وَحْشَةٍ لا شَيْءُ يُؤْنِسُهَ إلاَ أنَا وَ العُودُ وَ الشِّعْرُ
حَوْلِي أعَاجِمُ يَرْطُنُونَ فَمَا لِلضَادِ عِنْدَ لِسَانِهِمْ قَدَرُ
لَوْ عَاشَ بَيْنَهُمْ بْنُ سَاعِدَة لَقَضَى ولَمْ يُسْمَعْ لَهُ ذِكْرُ
نَاسٌ وَ لَكِنَ لاَ أنِيسَ بِهِـ وَمَدِينَـ لَكنَّهَ قَفْرُ.

يظل الشعور بالضياع و اليأس يتغلغل في نفسية شاعرنا "القروي" الذي يوقن أنه أضاع فردوسه، و بات في دار الغربة تائهاً مكسور القلب و الخاطر هذا ما نلمسه من خلال هذا البيت المأخوذ من قصيدة "أنشودة الغريب"[iv]:

حَتَامَ أحْيَا غَرِيب مَالِي وَطَنْ

و نجد الشاعر "القروي" في قصيدته "الوطن البعيد"[v] تفيض مشاعره بالوحشة الممزوجة بمرارة اليأس أمام غربة قاسية موجعة:

مُهْجَةٌ كُلُّهَا جَوَى كَبِدٌ كُلُّهَا حَنِينُ
تَائِه يَشْتَكِي النوَى دَأْبَهُ النَوْحُ وَ الأَنِينُ

***

قُلْتُ لاَ يَدْفَعُ الأسَى غَيْرُ أُمِّي وَ إِخْوَتِي
فَتَدَاوَيْتُ بِالمُنِى عَائِداً نَحوَ قَرْيَتِي
إنَّمَا الوَجْدُ لَمْ يَزَل مِثْلَهُ قَبْلَ عَوْدَتِي
مُهْجَةٌ كُلُّهَا جَوَى كَبِدٌ كُلُّهَا حَنِينُ
هَائِمُ أشْتَكِي النوَى دَأْبِيَ النَوْحُ و الأَنِينُ

***

مَا البَرَازِيلُ مَهْجَرِي لَيْس لُبْنَانَ لِي حِمَى

إنَّ نَفْسِي غَرِيبَةٌ تَشْتَكِي البُعْدَ فِيهِمَا

أنَا مَا دُمْتُ فِي الثرَى وَ بَعِيداً عَنِ السَمَا

مُهْجَتِي كُلُّهَا جَوَى كَبِدِي كُلُّهَا حَنِينُ

أَبَداً أَشْتَكِي النَوَى دَأْبِيَ النَوْحُ و الأَنِينْ

نلاحظ في هذه القصيدة تكرار لازمة و ذلك في قول الشاعر:

مُهْجَةٌ كُلُّهَا جَوَى كَبِدٌ كُلُّهَا حَنِينُ

تَائِه يَشْتَكِي النوَى دَأْبَهُ النَوْحُ وَ الأَنِينُ

فيترك الشاعر مسافات بين لازمة و أخرى ليشرح مأساته في دار الغربة، والملاحظ أن اللازمة ارتكزت على هذين البيتين و كأنه يصفدوام حاله السيئة في ديار الغربة، وقد عمل الشاعر على بداية ونهاية، فكانت عل ى شكل افتتاحيات وأقفال و تخللها فضاء امتد في النص الشعري.

إن أول ما نلمسه في الشاعر "القروي" تلك الروح الرومانسية الخيالية الحالمة التي تصنع لنفسها عالماً مثالياً خاصا كلما قادها الواقع إلى ضياع مجهول و لا محدود، خصوصا وأن الإحساس بالغربة نمطان: غربة روحية نفسية و غربة وطنية واقعة، وذلك من جراء اصطدام الشعراء بالمحيط المعاش[vi]....، ولعل هذا ما نستشفه من خلال قصيدته "الربيع الأخير"[vii] حيث يقول فيها "القروي":

هَيَا إلَى الغَابِ إنِي قَدْ بَنَيْتُ لَنَا *مِنَ الرَيَاحِينِ عُشّاً لَيِناً عَطِرَا

لاَ تَأْمَلِي مِنْ جِوَارِ النَاسِ مَنْفَعَةً * فَلْنَبْتَعِدْ عَنْ حِمَاهِمْ وَنَأْمَنُ الضَرَرَا

لَمْ يَعْمُرُوا مِنْ بِقَاعِ الأَرْضِ غَامِرَةً * إلاَّ وَقَدْ غَمَرُوا بِالبَشَرِ مَا عَمَرَا.

بالإضافة إلى صيغة النفي، نجد من خلال هذه الأبيات محسنا بديعيا وهو التضاد و ذلك في قوله:

منفعة ≠ الضرارا

لم يعمروا≠ غمروا

من خلال ما سبق نلمس ما يسمى بالبوح، فالشعراء عامة يبوحون بما يختلج صدورهم لتخفيف الثقل عن ذواتهم المرهقة بالهموم، لهذا كان الشعر مثالا للصدق الشعوري و الفني معاً، بما فيه من انطلاق عفوي يتحد فيه اللفظ بالشعور اتحاد الروح بالجسد في بساطة و يسر.

نجد عند الشاعر "القروي" خاصية البوح و المناجاة ، إذ يصور مدى قسوة الغربة أمام اشتداد حنينه و هو يشكو ألم البعد والفراق في قصيدته "حنين ومناجاة"[viii] فيقول:

لَيَكَادُ يَقْتُلُنِي الحَنِينُ إِلَى الحِمَى فَأَعْجَبُ لِطُولِ إِقَامَتِي فِي صَنْبَلِ

أَمْشِي كَبَعْضِ النَائِمِينَ أَوْ أَنَّنِي وَسَطَ مَدِينَةِ هَائِمٌ فِي مَجْهَلِ

و أُشَاطِرُ النَّاسَ الحَدِيثَ وَ خَاطِرِي عَمَنْ أُحَدِثُ وَالحَدِيثُ بِمَعْزَلِ

***

يَا سَامِعَ النَجْوَى، بِجَاهِ غُرُوبَتِي وَجِهَادِ إِخْوَتِي إِلَيْكَ تَوَسّلِي

فَإِلَيْكَ يَا رَبُّ إِلَيْكَ ضِرَاعَتِي وعَلَيْكَ يَا رَبُّ عَلَيْكَ تَوَكّلِي

تكثر الصور البيانية في بحر الشعر، و هذا ما لمسناه من خلال هذه القصيدة، فنجد مثلا التشبيه في قوله: "أمشي كبعض النائمين"، و باب التقديم و التأخير يكثر عند الشعراء، فنجد تقديم الجار و المجرود "إليك" في قوله: " إليك توسلي"، وجاء هذا التقديم من أجل أن يجعل الحرف (الياء) في

(توسلي) حرف روي، و نفس الحال في قوله: (عليك توكلي)، و نجد تكرار لفظة في قوله **"إليك**.... **إليك"**

و تبرز سمة النجوى أيضا من خلال قوله:[ix]

وَطَنِي لُبْنَانَ يَا نَجْوَايَ فِي قُرْبِي و بُعْدِي.

أيُّ خُلْدٍ شَاغِلِي عَنْكِ و أنْتِ الخُلْدُ عِنْدِي.

و قد انطلق الشاعر **"**القروي**"** من بواعث وطنية ونفسية، ليعبر من خلالها عن حنينه لوطنه، بشعر وطنيّ قومي يمثل عصارة إلهامه وإبداعه ويتسم بالشجن الشفيق ' حيث نجده في قصيدته (**الغريب و الشمس**)[x] التي نظمها في ري ودي جانيرو عام 1914م، يقول:

رَبَةَ النُورِ جَمَالٌ و كَمَالُ مَا أجَلاَ!

مُذْ بَدَا وَجْهُكِ مِنْ خَلْفِ الجِبَالِ وَ تَجَلَى

مَالَ ظِلُ اللَيْلِ نَحْوَ الغَرْبِ، مَالَ ثُمَّ وَلَى

شَمْسُ لُبْنَانَ أنْظُرِي حَالَ الغَرِيبِ وَ ارْحَمِيهِ

و اذْكُرِي كُلَ شُرُوقٍ و غُرُوبٍ لِذَوِيهِ

أنَّهُ صَبُ، و تِذْكَارُ الحَبيبِ مِلْءُ فِيهِ

————————————————

وَ أرَاهُمْ كُلَ صُبْحٍ و مَسَاءٍ مِنْ هُنَالِكَ

نجد في هذه القصيدة صورة بيانية تتمثل في استعارة مكنية في قوله (شمس لينان أنظري...)، فاعلم أن الاستعارة كما علمت تعتمد التشبيه أبداً[xi]، فهو إذا شبه شمس لبنان بالإنسان، فحذف المشبه به و هو الإنسان، و رمز له بأحد لوازمه و هو النظر، و نجد الطباق من خلال قوله:

شروق≠ غروب

صبح≠ مساء

ومن يتتبع ديوان القروي يجده يتغنى بوطنه في كثير من قصيدة[xii] ، فحبه لطبيعة لبنان يجري في نفسه مجرى الدم في المفاصل وهذا ما عبّر عنه بقوله :<وقد يتجسّم شعوري بصلة القربى بيني وبين هذه الأكوان، فأنعطف على الشجرة أعانقها ،والصخرة أضمّها ،والزهرة أناغيها ،والموجة أتقلّب عليها ، وأمدّ ذراعي إلى السّماء أحبيها ، وأبعث إلى الشّمس بقبلاتي على أطرافي بناني[xiii]> فهو الذي لطالما فضل قبراَ في وطنه على قصر في غربته كلما شده الحنين إلى لبنان الوطن.

الهوامش:

[1]– عمر الدقاق ، ملامح الشعر المهجري ، ديوان الكتب والمطبوعات الجامعية ، حلب ، سوريا ، د ط، د ت ، ص 64.

[1]– القروي،الديوان ،دار المسيرة ، بيروت ، لبنان، د ط، 1978 م، مج1، ص 231.

[1]– القروي ، الديوان ، مج 1 ،ص 237.

[1]– المصدر نفسه، مج 1 ، ص 260.

[1]– المصدر نفسه، مج 1 ، ص 348.

[1]– عزيزة مريدن، حركات الشعر العربي في العصر الحديث، مطبعة جامعة دمشق، 1989، ص 231.

[1]– القروي، الديوان ، مج2، ص 922.

[1]– المصدر نفسه ، مج2، ص 595.

[1]– المصدر نفسه ،مج 2 ،ص 892.

[1]– المصدر انفسه ،ص 256.

[1]–عبد القاهر الجرجاني ، دلائل الإعجاز، تحقيق وتقديم رضوان الداية وفايز الداية ، مكتبة سعد الدين ،دمشق ، ط1 ، 1994، ص61.

1– القروي ، الديوان ، مج 1 ،ص316 ، مج 2 ،ص 970

[1]- محمد عبد الغني حسن ، الشعر العربي في المهجر ، دار القلم ، الكويت ، ط4 ، 1976 م ، ص 64